التعليم فـــى القـــدس

فى القرن السادس عشر الميلادى/ العاشر الهجرى

دكتور

صلاح أحمد هريدى على

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

كلية الآداب بدمنهور

جامعة الإسكندرية

التعليم فى القدس

فى القرن السادس عشر الميلادى/ العاشر الهجرى

كانت المؤسسات التعليمية فى مدينة القدس فى العصر المملوكى أكثر من أربعين مدرسة وأكثر من عشرين زاوية، بالإضافة إلى مكاتب الأطفال والمساجد والمشاهد والتُرب اتخذت كمؤسسات تعليمية، حيث رتب بها منشؤها المدرسين والطلبة. ويمكن إلحاق تلك المؤسسات التعليمية مجالس العلماء ورجال الأدب الذين اعتادوا أن يعقدوها فى منازلهم أو منازل الحكام، أو فى أى مكان آخر، وتأثير هذه المجالس فى تزويد المترددين عليها بأنواع، العلوم والمعارف لا يقل عن تأثير المؤسسات التعليمية، وقد كثرت هذه المجالس فى عصر سلاطين المماليك حتى قيل أن كل أمير اعتاد أن يختار محدثًا يذيع للناس الأحاديث النبوية فى منزله، أما مجالس الأدباء فأكثر من أن تحصى(١).

وقد وجدت تلك المؤسسات التعليمية فى نظام الأوقاف خير دعامة تشد أزرها وتمكنها من البقاء والاستمرار فى أداء رسالتها، أو بعبارة أخرى فإن حياة كل من المدرسة والزاوية والمكتب والتربة والمسجد لم تكن رهنًا بحياة مؤسسها، حيث كان يوقف عليها من الأوقاف ما يضمن لها الاستمرار فى أداء رسالتها عقب وفاته، وهذه الأوقاف قد تكون أرضًا زراعية أو عقارات أو أسواق وحوانيت وحمامات تدر إيرادًا ثابتًا، ينفق منه على صيانتها، ودفع مرتبات العاملين بها، ومخصصات النازلين فيها(٢)، وحافظ العثمانيون على نفس السياسة حيث اهتم السلطان سليمان القانونى، بإعادة بناء أوقاف الحرم وبعض المدارس، كما قامت زوجته روكسلانه بإنشاء تكية فى القدس عام ١٥٥١م، ومجمع كبير يشمل مسجدًا ورباطًا ومدرسة وخانًا ومطبخًا بما يمد الطلبة والمتصوفين والفقراء بوجبات مجانية، وأصبحت التكية التى وهب لها أوقافًا كبيرة بها، تشمل قرى عديدة ومزارع فى منطقة رام الله، أهم مؤسسة خيرية فى فلسطين(٣).

---

(١) على السيد على، القدس فى العصر المملوكى، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٦، ص١٥٢.

(٢) نفسه، ص١٥٢، ١٥٣.

(٣) كارين أرمسترنج، القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث، ص٥٢٧، ٥٢٨؛ ليلى الصباغ، معالم الحياة الفكرية فى الولايات العربية فى العصر العثمانى؛ الدولة العثمانية، تاريخ وحضارة، إشراف وتقديم أكمل الدين إحسان أوغلو، نقله إلى العربية، صالح سعداوى، استانبول، ١٩٩٩، جـ٢، ص٣٠٩.

أما أنواع التعليم فيبدأ بالكُتَّاب، حيث كان تعليم الفرد المسلم، وفى جميع أنحاء العالم الإسلامى، يبدأ فى سن مبكرة على يد "شيخ" يحضره رب الأسرة لابنه أو ابنته، أو على رب الأسرة نفسه، إذا كان عالمًا أو متعلمًا. أو أنه كان يجرى فيما كان يُسمى بـ"الكُتاب" أو المكتب أو "المسيد" وكان الطفل فى هذه المرحلة الأولية يُعَّلم القرآن الكريم تلاوة، وحفظًا عن ظهر قلب. وكان يُعَّلم أيضًا القراءة بصفة عامة، والكتابة، وبعض مبادئ الحساب، وقليل من المعارف الدينية واللغة العربية.

وكان يطلق على المعُلَّم فى "الكُتَّاب" لقب "الشيخ" أو المؤدب أو المطوَّع [فى شرقى الجزيرة العربية]. وكان هناك بعض الكتاتيب للبنات ويطلق على الشيخة المعَّلمة لقب "الخوجة"، وكان التعليم فى "الكُتَّاب" مجانيًا إذ كان قد أسسه بعض الأثرياء أو بعض رجال الدولة من قضاة وولاة وغيرهم، إذ يكون قد خُص بأوقاف معينة تصرف منها أجور الشيخ، وأحيانًا ما يلزم تلاميذه من نفقات غذاء ولباس، ولاسيما منهم الأيتام والفقراء أما إذا كان منشئ "الكُتَّاب" هو الشيخ نفسه، فإنه كان يتقاضى من كل طفل أجرة زهيدة، تعرف بـ"الخميسية" لأن الشيخ كان يتسلمها كل خميس من الأسبوع. وقد تُقدم فى القرى على شكل هدايا نوعية، وكانت هذه الكتاتيب تقام عادة بالقرب من المساجد، أو فى المساجد نفسها، أو فى الزوايا، والخوانق، والترب، أو فى منزل الشيخ نفسه، أو فى أى بيت أو غرفة صالحين لهذا الغرض. وكانت منتشرة فى أنحاء كل ولاية[١].

وكان لهذه الكتاتيب على الرغم من عدم توافر شروط التعليم الملائمة فيها بصورة عامة، دور مهم فى حياة المجتمع الإسلامى العربى فى كل ولاية، إذ كانت عاملاً أساسيًا فى محو الأمية، وترسيخ اللغة العربية على ألسنة الأطفال، عن طريق تحفيظهم القرآن الكريم، ومنحهم ولو رصيدًا محدودًا من المعرفة المبدئية، يمكنهم من فهم ما يمكن أن يقدمه لهم الشيوخ الكبار، إذا ما تابعوا تعليمهم، كما يؤهلهم للاستفادة منه فى مهنهم المختلفة التى ينخرطون فيها، ويعَّدهم لإكمال ثقافتهم فى زوايا الطرق الصوفية، التى كانت طوائفهم الحرفية مرتبطة بها عادة. ولم تكن الدولة العثمانية لتتدخل سلبًا أو إيجابًا فى تلك الكتاتيب، إلا أنها كانت تشرف على أوقافها عبر قاضيها الحنفى، إذ كان لها أوقاف[٢].

وتعليم آداب الدين كذلك كان على الأطفال أن يتعلموا فى سن مبكرة، قواعد الوضوء وأركان الإسلام الخمس، كذلك يحفظون بعض الحكم والأمثال وبعض أبيات من الشعر عن

---

(١) ليلى الصياغ، معالم الحياة الفكرية فى الولايات العربية فى العصر العثمانى، ص٣٠٩.

(٢) نفسه، ص٣٠١.

طريق التكرار مع زملائهم وبطريقة غنائية خشية النسيان. كما كان الخط العربى من المواد الأساسية التى تدرس للأطفال فى مكاتبهم، وكان المؤدب يقوم بهذه المهمة بنفسه غالبًا، وأحياناً كان يعهد بذلك إلى "مكتب" يعَّلم الحظ، ولعله كان يصرف لهؤلاء الأطفال فى المكتب الأقلام والمداد والألواح والدوى التى كانت تشترى من ريع الوقف، ولعله وجد فى كل مكتب من هذه المكاتب ما يسمى بالعرَّيف وهو الذى يتولى وظيفة العرافة وهو الموجه بعشرة أنفار غالبًا، وكان العريف مساعدًا للمؤدب. فهو من جملة الأطفال بالمكتب ويستمر فيه ولو كان بالغًا. وكان يساعد المؤدب فى عمله بالمكتب، ويقوم مقامه أثناء غيبته، ويساعده فى تعليم الأطفال[١].

أما عن سن الالتحاق بهذه المكاتب فقد كان يلتحق بها الأطفال من سن الرابعة وحتى العاشرة[٢]، واختلف الأمر فى القرى عن المدن من حيث أن سكان القرى كانوا يرسلون أبناءهم إلى الكتاتيب فى سن متأخرة، فابن الريف لا يذهب إلى الكتاب إلا فى السابعة أو الثامنة من عمره، ويتوقف التدريس فى فصل الصيف والربيع، ويترك التلميذ الكتاب ليعمل مع والده فى الحقل حتى آخر الصيف، وبعد ثلاث أو أربع سنوات يعلن شيخ الكتاب انتهاء التلميذ من هذه المرحلة[٣].

أما عن أيام الدراسة فى المكتب فإنها غير محدودة، ويجب أن تكون هناك أيام للراحة، أما عدد الأيام هذه فيبدو أنه كان متروكًا لرأى المؤدب صاحب المكتب حيث كان استراحتهم يومين فى الجمعة، وكذلك إنصرافهم قبل العيد بيومين أو ثلاثة، وكذلك بل وذلك مستحب بقوله عليه الصلاة والسلام "روحوا القلوب ساعة بعد ساعة" فإذا استراحوا يومين فى الجمعة نشطوا لباقيها وأيضًا الأيام التى يكثر بها المطر، كانت ضمن الأيام التى تعطل فيها المكاتب مثل المرض أو الجمع والمواسم والأعياد[٤].

وبشأن التعليم بين البنات، فلم يتعد فى بادئ الأمر مرحلة الكتاتيب التى كانت تتعلم المرأة فيها مبادئ القراءة والكتابة، وبعد انتشار مدارس الإرساليات أخذ قسم من الفتيات وخاصة النصارى يلتحقن بهذه المدارس، وقد تخرَّج عدة معلمات عملهن فى التدريس وفى

---

(١) على السيد على، القدس فى العصر المملوكى، ص١٥٨، ١٥٩.

(٢) نفسه، ص١٥٨.

(٣) تيسير أحمد حسين وهايبة، القدس فى القرن التاسع عشر (١٧٩٩– ١٨٩٨م) رسالة ماجستير غير منشورة من قسم التاريخ – كلية الآداب بسوهاج، جامعة أسيوط، ١٩٨٢، ص٢٨٧، ٢٨٨.

(٤) على السيد على، القدس فى العصر المملوكى، ص١٦.

المدارس الألمانية أخذن الفتيات يتعلمن الأشغال المنزلية والخياطة. وكان ابتعاد المرأة عن التعليم يعود إلى نقص فى الموارد الخاصة بالمدارس وقلة وعى المرأة للتعليم وفوائده فى تلك الفترة بالإضافة إلى سلطة الرجل عليها وقناعته الخاصة أن مكانها المناسب هو البيت ولا يجوز خروجها والتعامل مع الرجال، وكان ضغط الحكومة العثمانية على الناس وعدم مساعدتهم على إنشاء المشاغل والمعامل الحرفية(١).

أما عن التعليم الأولى الابتدائى عند الطوائف المسيحية ليختلف فى جوهره عن التعليم عن المسلمين؛ أى أنه كان تعليمًا دينيًا، ويتم فى كتاتيب، أو فى الأديرة والكنائس، وكان يضاف إليه تعَّلم "اللغة السريانية" التى كانت لا تزال فى القرن السادس عشر الميلادى هى لغة الطقوس الدينية لدى بعض الطوائف النصرانية الشامية بصفة خاصة. وقد أخذ يحل محلها فى القرن السابع عشر الميلادى، اللغة العربية، التى ستصبح هى لغة تلك الطوائف منذ ذلك القرن. وكانوا يعلَّمون أيضًا أصول "الفضائل المسيحية" وخدمة القداس وبعض مبادئ الحساب. وكان يقوم بالتعليم القساوسة(٢).

أما عن تعليم الأطفال عند اليهود فمن المرجح أنه كانت لديهم أيضًا مكاتب لتعليم الأطفال حيث كانت التعاليم الدينية لديهم تحتم عليهم إرسال أطفالهم ليتعلموا من سن الخامسة أو السابعة وحتى سن الثانية عشرة والثالثة عشر، وفى تلك المكاتب كان يتم تعليم الأطفال القراءة والكتابة، وفهم وحفظ قوانين التوراة شفهيًا تمهيدًا لدراسة التوراة، وكان التعليم فى هذه المكاتب يتم مقابل – دفع الأهالى أجور المؤدبين الذين يقومون بتعليم أطفالهم، أما بالنسبة لأبناء الفقراء فكانت جماعة اليهود كلها تشارك فى دفع تكاليف تعليمهم، ويبدو أن مكاتب الأطفال هذه لم تكن يختلف كثيرًا عن مكاتب الأطفال عن المسلمين إلا من حيث مواد الدراسة، فقد كان يجلس الأطفال على الأرض حول معلهم، حيث يقوم بتعليمهم القراءة أولا، عن طريق تعلم شكل الحروف وتكرار الأصوات التى تمثلها تكرار الكلمات، كذلك اهتموا فى تعليمهم بتدريس كثير من الأقوال المأثورة لرجال دينهم، وذلك لتخليد هؤلاء الرجال ولتخليد أقوالهم أيضًا، هذا بالإضافة إلى جانب تدريسهم لكثير من الحكم، إلى جانب الاهتمام بمبادئ العقيدة اليهودية والعبادات الخاصة بها، وكانت مكاتب الأطفال هذه ملحقة بالكنيس الخاص بهم، وكانت التعاليم الدينية لديهم تحتم على الأب أن يتكفل بتعليم أطفاله حتى ينتهوا من تلك المرحلة، أى بوصولهم إلى سن الثانية عشرة، وبعد ذلك يمكن للأب أن يستعين بأبنائه فى

---

(١) تيسير وهابية، القدس فى القرن التاسع عشر، ص٢٩٥.

(٢) ليلى الصباغ، معالم الحياة الفكرية فى الولايات العربية فى العصر العثمانى، ص٣١٠، ٣١١.

حرفته أما عن اللغة المستخدمة فى ذلك التعليم فقد كانت هى اللغة العربية، وأحيانًا يكتبونها بحروف عبرية[١].

ويلى مرحلة التعليم الأولى تلك فى الولايات العربية، ما يمكن أن يطلق عليه اسم "التعليم العالى، ولقد كان يسير هو الآخر، وفى جميع الولايات العربية على نسق واحد، وكما كان عليه فى المرحلة السابقة لحكم الدولة العثمانية، وكان يجرى فى الجوامع، والمساجد، والمدارس، والزوايا، والخوانق، والربط المنتشرة انتشارًا واسعًا فى كل ولاية عربية، وكانت كل مؤسسة من تلك المؤسسات التعليمية تختلف عن الأخرى، فى حجمها ومعلميها، وعدد طلابها ومناهج تعليمها، ويرتبط هذا بصفة خاصة بالأوقاف المخصصة لها من الهيئة التى انشأتها، وبمستوى مدرسيها من العلم والمعرفة، وبطرائق تدريسهم التى يجذبون بها طلاب العلم بل والعلماء إليهم، لا من الإقليم الذى تقع فيه فقط، وإنما من الأقاليم الإسلامية الأخرى أيضًا[٢].

ولم تخضع الدولة العثمانية المؤسسات التعليمية العربية، بل أبقت لها تقاليدها، وقد كان فى مركز كل ولاية عربية، بل فى كل مدينة رئيسية، مسجد جامع، وأحيانًا أكثر من واحد، يستقطب كبار العلماء والمدرسين والطلبة، لا من أنحاء الولاية فحسب، وإنما من الولايات العربية الأخرى، ومن أنحاء العالم الإسلامى، وقد قامت الدولة العثمانية بحصر تلك المؤسسات وأوقافها، والعامل منها والمتوقف عن العمل، ولم تكتف بالسعى للحفاظ على المؤسسات التعليمية المختلفة التى كانت فى الولايات قبل مقدمها، بل عملت عبر سلاطينها وولاتها وكبار إداريها، وحتى فى مرحلة ضعفها، على تشييد مؤسسات دينية تعليمية جديدة وترميم الخرب منها، ولا يزال عدد غير قليل من تلك المؤسسات قائمًا إلى الآن[٣].

وكانت المدارس الموجودة قبل عهد العثمانيين خمس وأربعون مدرسة[٤]، وأقدمها هى المدرسة الصلاحية حيث كانت تعرف بصندحنه – أى القديسة حنة – مدرسة للشافعية،

---

(١) على السيد على، القدس فى العصر المملوكى، ص١٦٠، ١٦١.

(٢) ليلى الصباغ، معالم الحياة الفكرية فى الولايات العربية فى العصر العثمانى، ص٣١١.

(٣) نفسه، ص٣١٤.

(٤) محمد كرد على، خطط الشام، مكتبة الغورى، دمشق، الطبعة الثامنة، ١٩٨٣، جـ٦، ص١٢٣.

وأوقف عليها صلاح الدين كثير من الأملاك، وكان ذلك فى عام ١١٩٢م وسميت بالصلاحية، وتولى التدريس فيها نخبة من العلماء المسلمين طوال العصرين المملوكى والعثمانى[١].

ومن الملاحظ أن الذى أنشأ هذه المدارس الملوك والأمراء المسلمين احتسابًا لوجه الله تعالى تمامًا كما كان الأمر بالنسبة لإنشاء الجوامع والتكايا والزوايا، وكانت تنفق الأموال على هذه المدارس من الأوقاف أو الحبوس المخصصة لها، وكانت هذه المدارس فى العصر العثمانى تستفيد من الأوقاف العامة الموجودة فى مختلف الولايات وكان شيخ الحرم فى مدينة القدس يجمع هذه الأوقاف بنفسه أو يرسل من ينوب عنه فى جمعها، واهتم العثمانيون بالمدارس الموجودة بالقدس، وقاموا بعمل الصيانات الخاصة بها، كما قام القضاة بتعيين شيوخ لهذه المدارس وقد روعى فيهم الأمانة والتدين والأهلية[٢].

أما عن التعليم، فقد كان على الطالب أن يتلقى علومه على أيدى أحد المدرسين، أما فى المسجد الأقصى حيث يقوم بالتدريس العلوم الدينية من فقه وحديث وأصول وقراءات ووعظ بالإضافة إلى العلوم اللغوية من لغة عربية ونحو وصرف. وكانت الدراسة فى المسجد الأقصى على هيئة ما يمكن أن يطلق عليه نظام المحاضرات، حيث يجتمع الطلبة حول أحد الأساتذة، مكونين نصف دائرة أو حلقة، حيث يملى مادته أو يشرحها بطريقته الخاصة، ويدوَّن الطلبة ملاحظاتهم ويسألون الأسئلة، ويجيب عليها بنفسه أو من ينوب عنه عقب انتهاء الدرس، وقد تزداد أعداد الطلبة أو تقل بحسب شهرة المدرس أو تمكنه من المادة التى يقوم بتدريسها، وكانت هناك علاقات وطيدة بين المدرس وطلابه، وللطالب حرية اختيار الموضوع الذى يريد دراسته، وحرية التنقل من مدرسة لأخرى لجمع المعلومات على أكبر عدد من العلماء[٣].

ووجد نوع آخر من التعليم وعرف بطريقة الملازمة، حيث يعيش الطالب ملازمًا لمدة طويلة لأستاذة حيث يكتسب فيها معظم تعليم أستاذه، وأحيانًا كان الطالب يدفع لاستاذه مبلغًا من المال نظير عمله، وأحيانًا يكون بمثابة تابع له يقوم بتنفيذ كل ما يطلب منه من نسخ بعض المخطوطات أو مساعدته فى بعض شئونه حتى يصبح هو نفسه عالمًا، وأحيانًا يقضى معظم عمره مع هذا الأستاذ وقد يتزوج ابنته ويصبح خليفته، وكان فى استطاعه أن يدرس على عديد من المدرسين، يتعلم اللغة من واحد، وحفظ القرآن الكريم من آخر، والحديث من ثالث،

---

(١) عارف العارف، المفصل فى تاريخ القدس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٥، ص٣٧٠، ٣٧١.

(٢) تيسير وهابية، القدس فى القرن التاسع عشر، ص٢٩٦.

(٣) على السيد على، القدس فى العصر المملوكى، ص١٦١.

وبذلك لم يكن الطالب يخصص نفسه لعلم واحد أو لفرع واحد من فروع المعرفة، ووجد أيضًا التخصص فى بعض العلوم، أو قد تجذبه شخصية من الشخصيات، أو دراسة بعض الكتب، ومن الممكن له الحصول على عدة إجازات والتى كانت تسمح له التدريس أو الإفتاء أو تولى إحدى الوظائف الخاصة بأرباب الأقلام(١).

ولم تقتصر وظيفة المدرسة على الوظائف التعليمية فقط، بل أقيمت بها الشعائر الدينية فاتخذت كمساجد تقام فيها الصلاوات المفروضة، وصلاة الجمعة والعيدين، واستخدمت كمساكن للطلبة والمدرسين، وقد جرت العادة أن يكون بها مدفن واقفها حتى لو توفى بمدينة غير مدينته بيت المقدس، حتى يحظى بثواب قراءة القرآن والفاتحة على أرواحهم من الطلبة والصوفية وكان ينص على ذلك فى شرط الوقف.

أما المقررات الدراسية فكان تدريس الفقه على المذهب التى أنشئت من أجله، وتدريس الحديث النبوى الشريف، وتستمر الدراسة بصفة مستمرة ويستثنى من ذلك العطلات الرسمية كالأعياد والمناسبات مثل السفر للحج.

واتصالاً بالتعليم، كان وجود المكتبات (الكتيبات والخزائن) شائعًا فى مدينة القدس، وهناك مكتبات كبيرة قد أوقفت على مدرسة معينة، أو على إحدى الزوايا، ومنهم من أوقفها على الذرية على أن لا يتم التصرف بها إلا على حسب شروط الواقف فى محاولة للمحافظة عليها من الاندثار واستمرار النفع بها، وعادة ما تؤول هذه المكتبات إلى النفع العام. مثال ذلك أوقف الشيخ محمد خليفة به إبراهيم سنة ١٥٥١م مكتبة على نفسه وعلى أولاده وتؤول كتبها بعد انقراض الذرية إلى المدرسة الأرغونية(٢)، والشيخ شهاب الدين أحمد بن مزيد، فقد وقف كتبه على نفسه ومن بعده على أولاده يقرأونها وينتفعون بها، وإذا انقرض الأولاد توقف على طلبة العلم بالقدس الشريف، ويكون مقرَّها إذ ذاك خزانة الكتب الكائنة بالصخرة المشرفة تحت يد الأمين عليها، ووقف القاضى طه بن صالح بن يحيى قاضى القدس واللد كتبه التى حصل

---

(١) على السيد على، القدس فى العصر المملوكى، ص١٦٣- ١٦٥.

(٢) المدرسة الأرغونية، من المدارس الحنفية بالقدس تقع فى باب الحديد مجاورة للمدرسة الخاتونية أوقفها الأشرف السيف أرغون الكاملى (ت ١٣٥٦م) ودفن بل واكملت عمارتها بعد وفاته، وهى من المدارس التى استمرت فى أداء دورها فى العصر العثمانى. وكانت أوقافها موجودة فى طرابلس الشام، ويعرف مبنى المدرسة فى الوقت الحاضر باسم دار العفيفى، وهم يسكنون جزء منه، أما إيوان المدرسة الشرقى فيضم ضريح الملك الحسين بن على (انظر: شمس الدين محمد بن محمد بن شرف الدين الخليلى، تاريخ القدس والخليل عليه السلام، حققه وكتب مقدمته وحواشيه، ووضع فهارسه، محمد عدنان البخيت، نوفان رجالا، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامى، لندن عام ٢٠٠٤، ص١٥٠).

بعضها بخطة والبعض الآخر بالشراء وأوقفها على نفسه ثم ابنه فتح الله ثم على أولاده واستثنى منهم من ليس لهم علاقة بالعلم وإذا انقرض نسله تكون وقفًا على علماء المسلمين سواء كانوا من أهل بيت المقدس أو من غيرهم لينتفعوا بها[١].

ومما يسترعى الانتباه أن الشيخ محمد أمين أفندى، وقد أورث مكتبته للعالمين الشيخ سليمان، والشيخ داود ولدى الشيخ أبى الهدى الداوودى على نفسه مدة حياته ثم على ولديه ومن سيحدث من ولديه ثم على أولاد أولادهم[٢]، وهناك المزيد من هذه المكتبات.

وتعتبر مكتبة الشيخ محمد بن محمد بن شرف الدين الخليلى من أوائل المكتبات الكبيرة التى تم وقفها على طلبة العلم ولمن يرغب فى الإفادة منها. ويذكر المحققان محمد عدنان البخيت، نوفان رجا السوارنة أنه ما يلفت الانتباه فى هذه الوقفية، إذ بينت أمورًا جهة ذات دلالات حضارية، تاريخية وعلمية واقتصادية واجتماعية[٣]، ويبلغ عدد الكتب الموقوفة فى مكتبة الشيخ محمد الخليلى ما يقرب من ٦٥٠ كتابًا منها مصاحف شريفة، كتب التفسير، كتب الحديث الشريف، وكتب الفقة، وكتب الأصول، وكتب التوحيد والتصوف والقراءات، الفرائض وغير ذلك من العلوم الأخرى، وبما أن مكتبة الشيخ الخليلى قد تم وقفها على طلبة العلم، فقد حفز ذلك بعض العلماء أو مقتنى المخطوطات فى فترات لاحقه على إيداع ما لديهم أو ما يحوزونه من الكتب فى هذه المكتبة على شكل وقف أو هبة حيث وقف مفتى الحنفية بالقدس الشريف محمد التلافانى (ت١٧٧٨م) فى ١٨ إبريل ١٧٧٢م كتاب الغيث الهامع فى شرح جمع الجوامع، أوقفه على طلبة العلم[٤].

وهناك أيضًا مكتبات تخص بعض العائلات الإسلامية، المكتبة الفخرية ويملكها آل أبى السعود الذين قطنوا القدس منذ أكثر من سبعة قرون. ومكتبة آل البربرى، ومكتبة آل المؤقت أسسها الشيخ أحمد بن محمد الشهير بالمحدث وهو مغربى الأصل من مراكش[٥].

وبعد أن تم التعرَّض للمؤسسات التعليمية فى القدس بمراحلها المختلفة، يجب الإشارة إلى الدور الأساسى الذى قامت به الأوقاف فى هذا المجال، حتى استطاعت تلك المؤسسات القيام بالحركة التعليمية والفكرية فى مدينة القدس. إضافة إلى تأثيرها المباشر فى الحياة

---

(١) شمس الدين محمد بن محمد بن شرف الدين الخليلى، المرجع السابق، ص٣٠، ٣١.

(٢) محمد الخليلى، تاريخ القدس والخليل عليه السلام، ص٣٠، ٣١.

(٣) نفسه، ص٣٥- ٣٧؛ تيسير وهابية، المرجع السابق، ص٣٠٥.

(٤) محمد الخليلى، تاريخ القدس والخليل عليه السلام، ص٣٨، ٣٩.

(٥) محى الخليلى، المرجع السابق، ص٣١.

الاجتماعية وذلك من خلال انفاقها على الهيئة التدريسية وطلبة العلم فيها وعلى عدد من الأيتام والفقراء والمجاورين والعباد، لا سيما أن وظائفها المختلفة كان يشغلها أناس من أهل المدينة.

وقد قام السلطان صلاح الدين الأيوبى بعد فتحه مدينة القدس (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م)، بإجراءات هدف منها تعزيز الهوية الإسلامية لمدينة القدس وإعادة الهيبة الدينية إليها لتستعيد مكانتها فى قلوب المسلمين، ومن هنا كان إنشاؤه عددًا من المصالح الخيرية والعلمية التى استقطبت مع مرور الزمن مختلف الناس للقدوم إلى المدينة والإقامة فيها والمجاورة نظرًا لما فيها من الأماكن المقدسة، وكان من بين هؤلاء القادمين نفر غير قليل من طلبة العلم، والعلماء والفقهاء ورجال الصوفية، وحث صلاح الدين على الإكثار من إنشاء هذه المؤسسات وتحبيس الأوقاف عليها لتستمر فى أداء المهام المطلوبة منها وتبعه فى ذلك سلاطين بنى أيوب وأمراؤهم وسلاطين دولة المماليك وأمراؤها فيما بعد.

وكان هناك ٦٢ وقفًا خيريًا وذريًا، حُبس عدد غير قليل منها على المؤسسات ذات النفع العام كالمدارس والزوايا والربط والخانقاوات التى أنشئت جميعها فى الفترتين الأيوبية والمملوكية، واستمرت تلك المؤسسات بأداء دورها إلى أن خضعت المنطقة بأكملها للعثمانيين، الذين اهتموا بهذه الأوقاف وأولوها العناية الفائقة، وخاصة بعد أن قاموا من جديد بتحرير الأوقاف المحبوسة لها، وتسجيلها فى دفاتر خاصة بالأوقاف، ويذكر كل من محمد البخيت، ونوفان السوارنة دفتر [T. D. 131] خير دليل على هذه المدارس، وبلغ عددها فى مدينة القدس ٢١ مدرسة، يضاف إليها خانقاه واحدة وزاوية واحدة ورباط واحد، كان لها دور مكمل لما قامت به المدارس، هذا مع العلم أن عدد المدارس التى كانت تذكر فى المصادر المعاصرة كسجلات محكمة القدس الشرعية أكثر من ذلك بكثير(١).

ويأتى الإنفاق على المدارس والزوايا والأربطة والخانقاوات من خلال ريع الأوقاف التى حبست عليها سواء كانت قرى بكاملها أو حصص منها، أو مزارع، أو قطع أراض، أو عقارات. وانتشرت أوقاف بعضها فى مناطق واسعة، لذا اختلف الإنفاق من مؤسسة لأخرى حسب دخل جهات الوقف المرصودة عليها وعلى مقدار الريع المتحصل منها أو على حسب ميزانية كل مؤسسة، وبطبيعة الحال عكس هذا الاتفاق وضع المدرسة أو الزاوية أو الرباط من حيث إدامة عينها بالإعمار والترميم المستمر لها والإنفاق على كافة الوظائف والخدمات

---

(١) محمد عدنان البخيت، نوفان رجالا السوارنة، لواء القدس الشريف، من دفتر تحرير [T. D] (٩٣٢/ ١٥٢٥م- ٩٣٨هـ/ ١٥٣١- ١٥٣٢م).

التى تقدمها المدرسة، وكان يقاس أثر المدرسة أو الزاوية أو الرباط بقدر ما تحدثه خدماتها من نقله نوعيه فى المجتمع من خلال وظائفها المتعددة.

والمدقق فى وقف المدارس يلاحظ أن الخدمات التى تقدمها هذه المؤسسات كانت متنوعة واستقطبت أعدادًا لا بأس بها من أهالى القدس، وأن الذى يتحكم باتساع تلك الوظائف أو تقليصها هو دخل المدرسة، واختلفت تبعًا لذلك الرواتب المدفوعة لنفس الوظيفة من مدرسة لأخرى.

ويوضح الجدول الآتى المقارنة بين رواتب وظائف متشابهة فى عدد من المدارس[1]:

الوظيفة	مدرسة المعظيمة	مدرية الطبلونية	مدرسة الفارسية	مدرسة الفخرية	مدرسة مزهرية	مدرية مينكية	مدرسة صلاحية	مدرية قيتبانية
المشيخة			٩٨٠	٧٢٠	٣٠٠	١٨٠		٥٠٠
المدرس	ربع الحاصل						؟٩٧٤٠	
الناظر	ربع الحاصل				٣٢٠	٥٠٠		٣٠٠٠
المقرئ		؟٦٠	١٢٤			؟١٠٤٠		٣٢٥
البواب		٦٠	١٨٠	٢٩٠	١٥٠	٦٠,٢٦٠ رطل ختر	؟٧٥	
الفراش		٦٠			١٠٠	١٨٠٠خادم وفراش	٧٥	
السقا		٦٠		٣٦٠		٣٦٠		٦٠٠
الإمام				٣٦٠		٢٢٠	٦٠٠	٣٢٥
الجابى							١٢٠٠	
الصوفى				١٦٠	٧٠			
نفر								

وكانت ميزانيات بعض المدارس تتعرض إلى العجز نتيجة الإنفاق المفرط على وظائفها وخدماتها، ولا يزود المعلومات عن كيفية تعامل المدارس مع هذا العجز، وكان بعض المتولين أو النظار على هذه المدارس وعلى أوقافها قد يتجاوزون أحياناً الشروط التى حددها الواقف فى وقفه، خاصة عندما تتعرض بعض جهات الوقف إلى الخراب، وتكون بحاجة إلى إعمار أو أن يكون حاصل قرية ما قد تأثر بفعل العوامل الطبيعية من الجفاف أو غزوات

(١) محمد عدنان البخيت، نوفان رجالا السوارنة، لواء القدس الشريف، جـ٢، ص١١٩.

الجراد وما إلى ذلك أو بسبب الفوضى واضطراب الأمن، فعلى سبيل المثال كانت العقارات الواقعة فى وقف رباط علاء الدين البصير سبع بيوت، بيتان منها كانا فى حالة خراب إضافة إلى خراب الخان الواقع فى محلة باب النظر، وكذلك الحانوت الواقع بجوار الخان والحويش فى محلة باب النظر ومع ذلك فإن الطالع لمداخيل هذه المؤسسات يجد أن معظمها علاوة على ما أنفقته كانت تحقق بعض التوفير.

وقد نبه عدد من أصحاب الوقفيات فى وقفياتهم إلى حدوث النقص والزيادة فى ريع الوقف فدعوا ناظر الوقف أو مسئولية مراعاة ذلك عند الإنفاق من ميزانية الوقف. فعلى سبيل المثال شرط واقف المدرسة الصلاحية بأن يراعى الشخص الذى يتولى نظارتها الزيادة والنقصان عند الصرف حسب حاصل الوقف، وجاء عند صرف مرتبات الفقهاء الشرط الآتى: "يدفع لهم حسب شرط الواقف على ضوء ريع الوقف" ومثل هذا الشرط جاء فى مصرف المدرسة الفنارية[1]، حيث شرط الواقف أن يتم الاتفاق على ضوء دخل المدرسة.

والجدول التالى يبين ميزانية المؤسسات الوقفية والإنفاق منها مع بيان الوفر أو العجز[2].

المدرسة	الميزانية	الإنفاق	الفائض (الوفر)	العجز	ملاحظات
المعظيمة	٦٤٠٠	٦٤٠٠			وجدت عقارات لم يدوَّن ريعها
شاه خاتون	؟	؟	؟		
الخاتونية	٢٠٠	٥٠	١٥٠		
الطبلونية	٨٥٠	٥٧٠	٢٧٠		الفائض لعمارة المدرسة
المزهرية	٧٥٠	١٥٠٠		٧٥٠	فقط الإيراد من قرية بيت ساحور (١٢ط).
الحسينية	١٢٥٥٧	٤١٠			حصة المدرسة من قرية عصيرة/ نابلس لم تحدد الباقى يخصص بشكل عينى (خبز وزيت).
المنحكية	٧٣٨٢	١٠٢٥٠		٢٨٦٠	لم يدون ريع حمام صفط (١٩ط، أربعة أخماس من ط.
التنكزية	٤٣٠٦	١٢٤٦٠		٨١٥٤	إضافة إلى المخصصات العينية من الخبز والصابون
الصلاحية	٢٢٨٥٥	١٢١٩٠	١٠٦٤٥		
الباسطية	٨٠٠	؟	؟		
الفنارية					
الزاوية اللؤلؤية	٣٥٠				
الشيخونية	٣٠٠٠				
الزمنية	٦٠٦١,٥				
وقف ابن مزهر	١٤٠٠			٤٣٠٦	
الميمونية				٢٣٤٠	
المالكية	٥٠٠			٦٦٤٦	
القيتبائية	١٢٤٦٠	٢٩١١,٥	١٠١٢٠		فى الشهر الواحد

(١) المدرية الفنارية: وقفها محمد شاه بن الفنرى، فوقفها ونسبت إليه وسميت الفنرية، وكانت هذه المدرسة قائمة فى أوائل السيطرة العثمانية (١٥٢٩) (انظر، عارف العارف، المفصل فى تاريخ القدس، ص٣٩٥).

(٢) محمد عدنان البخيت، نوفا رجالا السوارنة، لواء القدس الشريف، جـ٢، ص١٢٠، ١٢١.

والهدف الأساسى من إنشاء المدارس فى مدينة القدس هو إعادة الهوية العربية الإسلامية إليها وتعزيز مكانتها فى قلوب المسلمين، وإحداث نوع من النشاط العلمى والثقافى يسمح للقدس بأن تصبح مركز استقطاب للعلماء ولطلبة العلم من مختلف أرجاء العالم الإسلامى، ومن البديهى أن يكون الاهتمام منصبًا بالدرجة الأولى فى هذه المدارس على أحياء الوعى الدينى نظرًا لطبيعة المرحلة التى مرت بها القدس أثناء احتلال الفرنجة لها، وجاءت معظم المدارس متشابهة فى مناهجها التعليمية، وهو غلبة الطابع الدينى عليها، وهذا خير تعبير عن مناهجها فى العهدين الأيوبى والمملوكى، وشمل المنهاج تدريس العلوم الدينية مثل قراءة القرآن الكريم وتدريسه. والحديث الشريف قراءة وتدريسًا، وتعليم الفقه على المذاهب الأربعة والتصوف، واللغة العربية وعلومها، ولم تحظ باقى العلوم بالاهتمام اللازم. وانحصرت علوم القرآن الكريم (المصحف) فى المدارس التالية.

المدرسة الطيلونية[١]، وبها [٦] مقرئين كاتب راتب الواحد منهم فى السنة ٣٦٠ أقجة[٢] سنويًا. والمدرسة الفخرية[٣]، كان بها من يقرأ آية الكرسى وكان مرتبه ٢٤٠ أقجة سنويًا. وكان يقام فى المدرسة الحسينية حلقات لتعليم القرآن الكريم، وكان فى المدرسة المنجيكية[٤]، ٣ أنفار يقرأون القرآن الكريم بلغت مرتباتهم السنوية ٣١٢٠ أقجة. أما المدرسة القيتبائية فى مدينة القدس كان بها من يقرأ القرآن الكريم كان مرتبة ٣٢,٥ أقجة فى الشهر

---

(١) المدرسة الطيلونية: أنشأها شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد الطولونى فى زمن الملك الظاهرى، فى زمن الملك الظاهر برقوق على يد مملوكه (أقبغا عام ١٣٩٧م). (انظر عارف العارف، المفصل فى تاريخ القدس، ص٣٩٣، ٣٩٤.) محمد عدنان البخيت، نوفا رجالا السوارنة، المرجع السابق، جـ٢، ص١٢٢.

(٢) الأقجة: [أقشا] كلمة تركية معناها الضارب أو الضاربة إلى البياض، وهى نقد صغير تركى عرف فى مصر وكذلك فى العراق، وباليونانية أسبرون Aspron وبالفرنسية أسبر Aspre، وكان سعرها عند ظهورها نحوا من ٢٢ سنتيما ثم هبط إلى أدنى من ذلك بكثير. وبدأ ضرب هذا النقد فى عهد أورخان. (انظر: الأب انستاس الكرملى، النقود العربية والإسلامية وعلم النميات، مكتبة الثقافة الدينية الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٨٧، ص٢٠٦، ٢٠٧).

(٣) المدرسة الفخرية: وقفها القاضى فخر الدين أبو عبدالله بن فضل الله ناظر الجيوش الإسلامية (ت ١٣٣١م) كانت فى القرن العاشر الهجرى مدرسة. وتقع المدرسة الفخرية (الخانقاه) بجانب باب المغاربة باب المغاربة (انظر، عارف العارف، المفصل فى تاريخ القدس، ص٣٨٤).

(٤) المدرسة المنجكية: تقع فى باب النظر، أنشأها الأمير سيف الدين منجك عام ٧٦٢هـ/ ١٣٦٠م. وسميت باسمه. وكان بها أملاك موقوفه (انظر عارف العارف، المفصل فى تاريخ القدس ص٣٨٩). وقد تهدم قسما كبيرًا من هذه المدرسة فى أواخر القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى وفى سنة ١٥٥٤م تم ترميمها بكلفة بلغت ١٦٧٦ أقجة (انظر، محمد عدنان البخيت، نوفان رجالا السوارنة، لواء القدس الشريف، جـ١، ص٢٠٦).

إضافة إلى مقرئى أجزاء القرآن الكريم يتقاضى الواحد منهم ١٠ أقجات شهريًا، وفى المدرسة الفارسية[١] وجد ٩ أنفار يقرأون القرآن الكريم بلغت مرتباتهم السنوية ١٣٢٠ أقجة، وكان واقف ابن مزهر وبلغ ريعة ١٤٠٠ أقجة وقفة على قراءة القرآن العظيم فى كل يوم بعد صافى الظهر والمغرب. ولا تنسى الدور الكبير الذى لعبه المسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة فى هذا المجال حيث كانت تعقد حلقات الدرس والذكر فى المسجدين، فعلى سبيل المثال بلغ عدد قراء القرآن الكريم فى المسجد الأقصى سنة ١٠١٠هـ/ ١٦٠١م ٧٣ مقرئًا، وبلغ عدد الربعات المحبسة للقراء ١٥ ربعة، وكان يشرف على القراء شيخهم الذى يعينه قاضى القدس الشريف مقابل أقجتين يوميًا وغرارة من الحنطة سنويًا، وكان مدرسو الحديث الشريف من أبناء بيت المقدس من العناصر المقدسة والرومية، وتولى العلماء المقادسة تدريس الفقه على المذاهب الأربعة، وكان المدرسون يعينون بأوامر سلطانية.

وكان منصبًا على قراءة القرآن الكريم، ولم ترد إشارة إلى تعليم القرآن الكريم، إلا وقف واحد هو وقف المدرسة الحسينية ولكن يفترض تعليمه وتعلمه لأن ذلك أحد الوظائف الأساسية لهذه المدارس، وهناك وظائف ارتبطت بقراءة القرآن الكريم أبرزتها هذه الوقفيات مثل: شيخ المصحف، مقرئ آية الكرسى، ومفرق الأجزاء.

أما قراءة الحديث النبوى الشريف وتدريسه فانحصرت تدريسًا وقراءةً فى المدرسة التنكزية التى كانت تضم مشيخة للحديث وعددًا من شيوخه ومقرئين للحديث كان من بينهم مقرئة، وكانت مرتباتهم نقدية وعينية. وكانت تتم فى المدرسة القيتبائية قراءة الحديثة النبوى، وكان مرتب المقرئ الشهرى ٣٢,٥ أقجة.

واقتصرت المدارس التى كانت تدرس الفقه على مدرستين هما: المدرسة التنكزية[٢] والمدرسة الصلاحية، ولكن دون إعطاء تفصيلات حول عدد المدرسين، وعدد الطلاب وكانت المدرسة التنكزية تقوم بتدريس الفقه لطلبتها حسب تدرجهم فى طلبة، أى على ثلاث مراحل،

---

(١) المدرسة الفارسية: بين الأمينية من الشرق والملكية من الغرب. وأوقفها الأمير فارس البكى بن الأمير قطلو ملك بن عبدالله نائب السلطنة والجبلية ونائب غزة. جانبا من قرية طولكرم عام ١٣٥٤م (انظر، عارف العارف، المفصل فى تاريخ القدس، ص٣٨٥).

(٢) المدرسة التنكزية: أنشأها الأمير تنكز الناصرى والذى كان نائب السلطنة المصرية بالشام ١٣٢٨م. وأنها عند باب الحرم المعروف بباب السلسلة وموتحوفة باسمه (انظر، عارف العارف، المفصل فى تاريخ القدس، ص٣٨٢، ٣٨٣).

ويبين الجدول التالى مراحل تدريس الفقه فى المدرسة التنكزية والوظائف التعليمية الأخرى فى المدرسة ومقدار الإنفاق عليها نقدًا وعينًا على الوجه التالى[1]:-

المدارس	٦٠ درهمًا فضيًا كل شهر	و(١) رطل خبز كل يوم
المعيد	٣٠ درهمًا فضيًا كل شهر	و(٢) رطل خبز كل يوم
الفقيه المنتهى (فى السنة النهائية)	٢٠ درهمًا فضيًا كل شهر	و(٢/ ٣) رطل خبز كل يوم
الفقيه المتوسط	١٥ درهمًا فضيًا كل شهر	و(٠,٠٥) رطل خبز كل يوم
الفقيه المبتدئ	١٠ دراهم فضة كل شهر	و(٠,٠٥) رطل خبز كل يوم
شيخ المحدثين	٤٠ درهمًا فضيًا كل شهر	و(١) رطل خبز كل يوم
قارئ الحديث	٢٠ درهمًا فضيًا كل شهر	و(٠,٠٥) رطل خبز كل يوم
المحدث	٧,٥ درهم فضيًا كل شهر	و(٠,٠٥) رطل خبز كل يوم
شيز الصوفية	٦٠ درهمًا فضيًا كل شهر	$\frac{١}{٣}$ رطل زيت و $\frac{١}{٣}$ رطل صابون ورطل خبز
الصوفى	١٠ درهم فضيًا كل شهر	$\frac{١}{٦}$ رطل زيت وسدس رطل صابون وكل صوفى من الصوفية رطل خبز يوميًا

واهتمت بعض المدارس بتعليم الطلبة، وبخاصة الأيتام والمساكين منهم، ووفرت لهم الرعاية اللازمة، وأحضرت من يقوم على تدريسهم كما فى المدرسة المعظمية الحنفية التى كانت تنفق نصف دخلهم السنوى على الطلبة والمباشرين، والمدرسة الحسينية التى سكنها عدد من الفقراء ووفرت لكل منهم ٤٠ رطلاً خبز فى السنة، وخصصت لكل يتيم من أيتام القدس ربع رطل خبز ونقدية مقدارها ٧ أقجات فى الشهر وكان المؤذن يحصل فى السنة على ٣٠ رطل خبز. أما الأيتام والمساكين فى المدرسة المنجكية فقدرت مخصصاتهم السنوية بـ ٧٢٠ أقجة.

وتبين وقفيات المدارس أن حركة التصوف كانت نشطة فى بيت المقدس وهى استمرار للنشاط الصوفى الذى بدأ مع تحرير صلاح الدين للمدينة، وكان هذا من ضمن الإجراءات التى قام بها صلاح الدين التى هدف منها تشجيع هذه الفئة من الناس للرحيل إلى مدينة القدس والإقامة بها، خاصة بعد أن أقام عدة منشآت خصصها لأصحاب الطرق الصوفية، وأوقف وحبس عليها العديد من الأوقاف لتوفير سبب الراحة لهم، وافساح المجال أمامهم لممارسة شعائرهم الدينية المختلفة، وتشجيع غيرهم على القدوم إلى القدس والإقامة فيها.

(١) محمد عدنان البخيث، نوفا رجاء السوارنة، المرجع السابق، جـ٢، ص١٢٣.

وفيما يلى جدول بالجماعات الصوفية الجماعات الأخرى التى أوت إلى القدس ومقدار ما كان ينفق عليها حسب ما أوردته وقفيات المدارس[١].

المدرسة	الصوفية/ عدد	المصروف السنوى
المدرسة الفخرية	١٥	٢٤٠٠ نقدًا
رباط علاء الدين	فقراء ومجاورية وغرباء	٢٠٤٠
المزهرية	١٠	٧٠٠
الحسينية	١٥ + فقراء ومساكين	٦٠ ٤٠ رطلاً خبز
التنكزية	عُبَّاد شيخ الصوفية ١٥	٢٦٠ ٦٠ ٧٢٠ ٩٠٠ ١٨٠٠ ٣٠٠ رطل خبز ٣ أرطال صابون
	مشيخات الصوفيات (١٠) صوفيات زوجات القراء العشر معلمية	٢٠٠ نقدًا ١٦٠ رطل خبز ربع ثلث رطل فى اليوم ٩٠٠ ١٢٠٠ رطل خبز ١٢٠ ١٨٠ رطل خبز
القيتبائية	٣	١٠٠٠

وقد وفرت أوقاف المدارس وغيرها من الأوقاف الكثير من الوظائف: دينية، وعلمية وإدارية ومالية إضافة إلى وظائف خدمية أخرى ومن الوظائف الإدارية والمالية والدينية[٢]، وهى النحو التالى:-

١- شيخ المدرسة

يعتبر الشيخ صاحب أكبر رتبة علمية فى المدرسة، والأستاذ فى تخصصه، ويحق لشيخ المدرسة أن يُدرس فى أكثر من مدرسة مما أدى إلى ثراء بعضهم، وأحيانًا تقترن وظيفة المشيخة، مع النظارة (نظارة وقف المدرسة)، كما فى الخانقاه الصلاحية، وكان مرتب وظيفة المشيخة فى الخانقاه الصلاحية ٣٢٠٠ أقجة فى السنة[٣].وكان مرتبها فى المدرسة الفارسية

(١) محمد عدنان البخيت، نوفان رجالا السوارنة، لواء القدس الشريف، ص١٢٤، ١٢٥.

(٢) نفسه، من دفتر تحرير [T. D. 131] (٩٢٣- ١٥٢٥م ٩٣٨هـ/ ١٥٣١ – ١٥٣٢م)، دراسة تحليلية للنص العثمانى وترجمته إلى العربية مع الشروحات الإيضاحية، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامى، لندن، عمان ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، جـ٢، ص١٢٥، ١٢٦.

(٣) محمد عدنان البخيت، نوفان رجالا السوارنة، لواء القدس الشريف، جـ٢، ص١٢٦.

٩٨٠ آقجة فى السنة أما فى حالة المدرسة الفخرية، فكان مرتب المشيخة ٧٢٠٠ آقجة سنويًا وكان راتب المشيخة فى المدرسة المزهرية ٣٠٠ آقجة فى السنة[١].

وجمعت الإمامة أحيانًا إلى وظيفة المشيخة كما فى المدرسة الحسينية[٢]، وبلغ مرتب هذه الوظيفة ١٨٠ آقجة فى السنة[٣]، وكان فى المدرسة التنكزية ثلاثة شيوخ أحدهم شيخ الحديث، والآخر شيخ الصوفية، والثالث مشيخة النساء، وكانت مخصصات هذه الوظيفة على التوالى ١٨٠٠ نقدًا و٣٣٠٠ رطل خبز فى السنة الأولى و٧٢٠ أقجة، ٩٠٠ رطل خبز فى السنة الثانية، و٢٠٠ أقجة و١٦٠ رطل خبز[٤]، ولا يعرف سببا لانخفاض المرتبات النقدية والعينية ربما يرجع ذلك لوصية الواقف.

٢- المدرس

ويلى المدرس الشيخ فى الرتبة ويقوم بالتدريس، وكان يدقق فى اختيار المدرس الذى سيقوم بالتدريس، لأنه يعتبر أستاذ المادة، ويفوق مركز المدرسة، ولأن الطلاب كانوا يرتحلون إليه بالذات أينما حل، ويحصلون منه على الإجازات العلمية، ويشترط أن يكون أفقه الفقهاء فى مذهبه. وقد يكون نفسه هو الناظر على المدرسة وحددت اختصاصاته الإشراف على المدرسة والأوقاف المحبوسة عليها وعلى حساباتها، وعليه تنفيذ وصية الواقف، ويعاونه المعيد حيث كان يكلف بإعادة الشرح للطلبة، لكى يزدادوا فهمًا ويحسنوا الشرح لهم، ويحضَّر الدروس التى يكلفها بها المدرس ليقرأها على الطلبة أثناء الدرس، وكان بعض المعيدين على درجة كبيرة من العلم [٥]. وكان يتقاضى راتبًا سنويًا مقداره ٢٤٠ أقجة سنويًا كما فى المدرسة الفارسية[٦].

---

(١) محمد عدنان البخيت، نوفان رجالا السوارتة، لواء القدس الشريف، جـ٢، ص١٢٥.

(٢) المدرسة الحسينية: على باب الأسباط، وهى آخر المدارس هناك، ويقال أنها وقف شاهين الحسينى (انظر، عارف العارف، المفصل فى تاريخ القدس، ص٣٨٩.

(٣) محمد عدنان البخيت، نوفان رجالا السوارنة، لواء القدس الشريف، جـ٢، ص١٢٦.

(٤) نفسه، ، ص٢٥

والرطل: هو اثنى عشرة أوقية كل أوقية ١٢ درهمًا = ١٤٤ درهمًا = ٤٥٠ جم وكان يدعى بالرطل الفلفى – كانت توزن التوابل والبضائع الثمينة على وجه الخصوص (انظر، فالترهنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها فى النظام المترى، ترجمه عن الألمانية كامل العسيلى، منشورات الجامعة الأردنية، عمان ١٩٧٠، ص٣٢.

(٥) على السيد على، القدس فى العصر المملوكى، ص١٦٥.

(٦) محمد عدنان البخيت، نوفان رجالا السوارنة، لواء القدس الشريف، جـ٢، ص١٢٤.

٣- الإمام

كما هو معروف وظيفة الإمامة فى الصلاة، وكان راتبه فى الخانقاه الصلاحية ٧٤٠ أقجة فى السنة، وفى المدرسة الفخرية كان راتبه ٣٦٠ أقجة فى السنة وفى المدرسة المنجكية كان راتبه ٢٢٠ أقجة فى السنة، وفى المدرسة الصلاحية كان راتبه ٦٠٠ أقجة فى السنة وغالبا ما يكون الأئمة من أبناء القدس(١).

٤- المؤذن

وجد فى المدرسة الصلاحية مؤذنين بلغ مجمل راتبه السنوى ٥٠٠ آقجة، بينما بلغ راتب المؤذن فى الخانقاه الصلاحية ٩٠٠ آقجة فى السنة(٢).

٥- ناظر وقف المدرسة

وهو المشرف العام على الوقف مهمته كمهمة المتولى الإشراف على الوقف والإنفاق منه على الوظائف المختلفة، ومراقبة وضع الأبنية وصيانتها، وكان على الناظر أن يعد كشفًا (دفتريًا) سنويًا بحسابات الوقف ومصروفات ومراقبة عمل الموظفين وكان راتب الناظر فى وقف المدرسة المعظيمة الحنفية(٣)، ربع المتحصل فى السنة وكان راتب ناظر وقف المدرسة الخاتونية(٤) ٥٠ أقجة فى السنة وراتب الناظر فى وقف المدرسة الفخرية ٣٢٠ أقجة فى السنة، وراتب الناظر فى وقف رباط علاء الدين ١٠٠٠ أقجة فى السنة، بينما بلغ راتب الناظر فى المدرسة المنجكية ٥٠٠ أقجة فى السنة(٥).

---

(١) محمد عدنان البخيت، نوفان رجالا السوارنة، لواء القدس، جـ٢، ص١٢٦.

(٢) نفسه، جـ٢، ص١٢٦.

(٣) مدرسة المعظمية: وقف الملك المعظم شمس الدين عيسى بن أبى بكر بن أيوب شاذى (ت ١٢٢٦م)، وهى مقابل باب شرف الأنبياء المعروف بباب الدويدارية تاريخ وقفها سنة ١٢٦١م، وقد حبست عليها جهات كثيرة، وكان اختصاص المدرسة بالفقه الحنفى (انظر، محمد عدنان البخيت، نوفان رجالا السوارنة، لواء القدس الشريف، جـ١، ص٢٧٠).

(٤) المدرسة الخاتونية: بباب الحديد غربى الحرم وإلى الشمال من باب القطانيين واقعة قبلى المدرسة الأرغونية واقفتها أغل خاتون بنت شمس الدين محمد بن سيف الدين القازانية البغدادية وكان ذلك فى ٢٩ إبريل ١٣٥٤م. ووقفت عليها مزرعة ظهر الجمل. (انظر، عارف العارف، المفصل فى تاريخ القدس، ص٣٩١).

(٥) محمد عدنان البخيت، نوفان رجالا السوارنة، لواء القدس الشريف، جـ٢، ص١٢٦.

٦- المتولى

يقوم أحياناً مقام الناظر فى الإشراف على شئون الوقف وتأتى سلطات المتولى فى المرتبة الأولى كالناظر مع التشابه الواضح بين مهام الاثنين ومن واجبات المتولى إعمار الوقف واستثمار فائض أمواله ومتابعة قضايا الوقف وإعداد الحسابات السنوية[١].

٧- المباشر

وكانت مهمته ضبط أصول الوقف وعمارته ووجوه الإنفاق. وكان راتب المباشر فى وقف السلطان قايتباى على مدرسته بالقدس ٢٤٠ آقجة سنويًا[٢].

٨- الشاهد

وظيفته رقابية وهى أن يكون الشاهد رقيبًا على أحوال الوقف وموظفيه، وكانت وظيفة شاهد الحساب من الوظائف المعروفة فى الأوقاف، وكان راتبه فى السنة ١٥٠ أقجة، وهناك مشاهدين مراقبين على وقف الخانقاه الصلاحية، وكان مرتب هذه الوظيفة فى السنة ٢٨٠ أقجة سنويًا، ووجُدوا كذلك فى وقف المدرسة الفخرية وكان راتب الوظيفة السنوى ٥٤٠ أقجة، ومنها شهود البوابة وراتب الواحد منهم ٢٤٦ أقجة سنويًا، كما وجدت وظيفة شهود المرمات فى وقف رباط علاء الدين البصير ووظيفتهم مراقبة الترميم الذى يجريه العمال والمعمار لبناء الرباط. وكان راتب الوظيفة ١٢٠ أقجة سنويًا. وجاءت هذه الوظيفة فى وقف المدرسة الحسينية وكان راتب صاحبها ١٥ رطل خبز فى كل شهر، ومثل هذه الوظيفة كانت فى وقف المدرسة المنجكية وكان راتب شاغلها السنوى ١٤٤٠ آقجة[٣].

٩- الجابى (الجباية)

وكان صاحبها يتقاضى ١٥٠ أقجة فى السنة فى المدرسة المنجكية، وكان الجابى فى وقف المدرسة الصلاحية يتقاضى مرتبًا شهريًا قداره ١٠٠ أقجة شهريا أى فى السنة ١٢٠٠ أقجة، وقد يكون فى الوقف الواحد إذا كان واسع الانتشار أكثر من جابى، وتعتبر وظيفة الجابى من أهم وظائف المهام المالية للوقف وهو يختص بتحصيل ريع الوقف ومحاصيله وغلاله.

---

(١) محمد عدنان البخيت، نوفان رجالا السوارنة، لواء القدس الشريف، جـ٢، ص١٢٦.

(٢) نفسه، ص١٢٧.

(٣) نفسه، ص١٢٧.

وكان هناك موظف آخر يسمى المستوفى كانت مهمته تدقيق جميع العمليات الحسابية الخاصة بوقف الخانقاه الصلاحية وكان راتبه السنوى ٢٠٠ أقجة[١].

١٠- الشاد

ويذكر أحيانًا باسم المشد وهو المفتش ومن صفات صاحبها الشدة والحزم يرتبط صاحب هذه الوظيفة ارتباطًا وثيقًا بالجابى، إذ يعتبر مساعدًا للجابى ويسافر نيابة عنه فى الكشف على مصالح الوقف وتحصيل حاصلاته، ولم تقتصر مهام الشاد على النواحى المالية فحسب بل أسندت إليه مهام رقابية أخرى. وهناك وظيفة مشد العمار فى المدرسة الفخرية وكان الراتب السنوى لمن يشغلها ١٢٠ أقجة ووظيفة أخرى يقوم بها الشاد وهى الإشراف على إنتاج الخبز وتوزيعه وهى مشد الخبز ومن مهامه أيضًا مراقبة حمالى الخبز. وكان مرتب مشد الخبز ١٨٠ أقجة فى السنة[٢].

١١- أمين المخزن (الجراية، المؤونة).

تفترض وجود هذه الوظيفة فى أكثر من مؤسسة وقفية فى لواء القدس؛ لأن عددًا من الأوقاف تحتفظ بحصة من ريع أوقافها فى صورة مواد عينية أى على شكل غلال وحبوب وزيت وصابون سواء لتقديمها فى صورة جراية أى راتب عينى للعاملين فيها أو تذهب على شكل خدمات أخرى للوقف، وذلك يتطلب من ناظر الوقف أو المتولى أن يحفظه فى مخازن خاصة بالوقف، وأطلق على من يتولى تخزين هذه المواد فى المخزن اسم أمين المخزن، مهمته المحافظة على مخزن الغلة (أنبار دار) ويضبط ما يحمل إليه من الحبوب وآلات الطعام، ويخرج ذلك فى أوقات إخراجه للاستعمال.

ومع تعدد مؤسسات الوقف كالمساجد والمدارس والزوايا والتكايا والأسبلة وغيرها وما كان يحبس عليها كالعقارات والدكاكين والبيوت والحمامات وغيرها كان لابد لها من ترميم وتعمير وصيانة فنية بعد الكشف عليها؛ لذا لابد من وجود جهاز فنى يشرف على ذلك، ووجد عدد من العمال الفنيين الذين كانت لهم علاقة بذلك، كمشد العمار، والمعمار (المهندس) وشهود العمارة، والمرماتى والوقاد (القنديلجى، الشعال) وغيرهم ممن كانوا يتناولون مرتباتهم من ريع الوقف، وكان وجود القواسين (الغفير) لحماية مقتنيات الوقف، ويبدو أن هذه الوظيفة كانت معروفة، وكان مرتب هذه الوظيفة مرتفعًا، هذا ما ظهر من راتب القواس، وقد يكون

---

(١) محمد عدنان البخيت، نوفان رجالا السوارنة، لواء القدس الشريف، جـ٢، ص١٢٧.

(٢) نفسه ، ص١٢٧، ١٢٨.

هذا الراتب لأكثر من قواس إذ أن الراتب السنوى المخصص لهم كان ٣٨٤٠٠ أقجة سنويًا، ويتقاضى القواس رطلين من الخبز عن كل يوم[١].

١٢- المؤقت (الميقات)

هو الذى يحدد وقت الصلاة وصاحب هذه الوظيفة كان يتقاضى راتبًا سنويًا مقداره ١٢٠ أقجة[٢].

١٣- القيم (الفراش)

وظيفته فرش المدرسة والمسجد بالحصر والبسط وتنظيف ذلك جميعه وكنسة وإيقاد المصابيح وإطفاؤها، وينوب على باب المدرسة، ومن مهامه غسل المطهرة وتنظيفها، ويتولى أحيانًا إحضار الربعة الشريفة، ويختلف راتب الفراش بين مدرسة وأخرى ففى حين بلغ راتب هذه الوظيفة فى المدرسة الصلاحية ٧٥ أقجة فى السنة، بلغ فى وقف المدرسة القيتبائية فى القدس ٦٠ أقجة شهريًا[٣].

١٤- مفرق الأجزاء.

يقوم بتفريق أجزاء القرآن الكريم على جماعة القراء ثم يقوم برفعها، وجدت مثل هذه الوظيفة، فى المدرسة القيتبائية وكان راتب شاغلها ١٠ أقجات شهريًا[٤].

١٥- البواب

وظيفته موجودة فى معظم أوقاف المدارس وكان على البواب ملازمة الباب ليل نهار، ويفتحه ويغلقه فى الأوقات التى جرت العادة بها، كان راتب البواب فى رباط علاء الدين البصير ٢٦٠ أقجة فى السنة بينما كان راتب هذه الوظيفة فى وقف المدرسة المزهرية ١٥٠ أقجة فى السنة، وبلغ راتب البواب فى المدرسة المنجكية ٢٦٠ أقجة فى السنة[٥].

---

(١) محمد عدنان البخيت، نوفان رجالا السوارنة، لواء القدس الشريف، جـ٢، ص١٢٨، ١٢٩.

(٢) نفسه ، ص١٢٩.

(٣) نفسه، ص١٢٩.

(٤) نفسه، ص١٢٩.

(٥) نفسه، ص١٢٩.

١٦- السقا:

كان الماء ولازال عنصرًا مهمًا فى المدارس والمساجد من أجل الشرب والوضوء وغسل المكان. وترد الإشارة إلى السقاية فى عدد من المدارس، ومهمة السقا جلب الماء من الصهاريج فى مدينة القدس إلى المدارس والزوايا فكان السقا فى وقف المدرسة القيتبائية يتقاضى راتبًا قدره ١٦٠ أقجة، وفى المدرسة المنجكية كانت مخصصات السقا السنوية ١٨٠ أقجة، وارتفعت مخصصات هذه الوظيفة فى المدرسة الفخرية حيث تقاضى السقا راتبًا سنويًا قدره ٣٦٠ أقجة.

وكان اهتمام الواقف منصبًا على توفير الماء لمدرسته، وبخاصة الضمان وصوله للحمامين المجاورة للمدرسة ولبيت الطهارة الملحق بمسجد المدرسة وكذلك إيصال الماء إلى البركة التى تتوسط المدرسة [١].

وقد تضافرت جهود مجموعة من الوظائف على توفير الخدمات الأساسية للمدرسة وجوارها وذلك عن طريق وجود خدام للمدارس وللمتوضأ، ومجرى للماء فى حمام المدرسة الفخرية، وفرش المدارس والمسجد الملحق بها بالحصر وإنارة المدارس، وذلك بإشعال القناديل وتوفير مادة الزيت اللازمة لذلك.

من هنا يستطيع الباحث أن يتبين الدور الكبير الذى أدته هذه المدارس فى المجالات الدينية والاجتماعية والاقتصادية بمدينة بيت المقدس وجوارها[٢].

هكذا ألقت الدراسة الضوء على المؤسسات التعليمية بكافة مراحلها بدءًا من التعليم الابتدائى حتى التعليم العالى فى عهد الأتراك العثمانين واستمر الوضع حتى خضعت الشام (١٨٣١- ١٨٤٠م) للحكم المصرى وشهدت تطورًا ثقافيًا وفكريًا سريعًا بفضل المدارس الابتدائية التى أنشأها المصريون فى معظم أنحاء البلاد، وكذلك المدارس الثانوية التى أنشئت فى معظم المدن الشامية، وكان الدافع إلى انتشار تلك المدارس فى عهد محمد على يعود إلى حاجته إلى من يتولى الأمور الإدارية فى هذه البلاد من أبنائها الحاصلين على قسط من التعليم.

---

(١) محمد عدنان البخيت، نوفان رجالا السوارنة، لواء القدس الشريف، جـ٢، ص١٢٩، ١٣٠.

(٢) نفسه، ص١٣٠.

أما بخصوص المدارس العالية التى أنشأها محمد على باشا والتى تخرَّج منها بعض أبناء سوريا، بالإضافة إلى المدارس العالية التى أقامتها الدولة العثمانية فى استانبول والتى التحق فيها بعض أبناء الأغنياء من الشام وتلقوا العلم منها فكان لهذه المدارس أثر فى ازدياد عدد المتعلمين فى ولاية سورية[١].

وقد أسس إبراهيم باشا المدارس فى بلاد الشام على النسق المصرى واتصفت هذه المدارس الانضباط الشديد. فقد فرض على الطلاب لبس البدلة العسكرية كما قدمت لهم الأطعمة مجاناً، وكان التعليم فى هذه المدارس يقوم على أخذ الصبية من بيوتهم، وحجزهم فى المدارس لفترة طويلة حيث لا يسمح لهم بالرجوع إلى أهلهم إلا بإذن الحكومة، التى تقوم برعاية شئونهم من لباس وطعام وتعليم وتربية، حتى إذا أنهى الواحد منهم تعليمه، توفر له الحكومة الشغل وتدفع له المرتب. ورغم ذلك فقد نفر الناس ولم يشجعوا أبناءهم للالتحاق بالمدارس خوفاً عليهم من الجندية، والواقع أن محمد على كان يلقى من الناس فى أول عملهم بالمدارس إعراضًا ذلك لأن فكرة التعليم اختلطت فى أذهانهم بالجندية، إذ كانوا يرون عمال الحكومة يجمعون أطفالهم كما يجمعوا شبانهم سواء بسواء ويذهبون بهم إلى حيث لا يعودون إلا بعد وقت طويل، ثم هم يرون المدارس يحرسها الجند وأبناءهم يحيون فيها حياة أقرب إلى حياة الجندية وقد ينتهى عهدهم بالمدارس إلى الانخراط فعلاً فى سلك الجيش إما جنودًا أو ضباطًا[٢].

---

(١) تيسير أحمد حسين وهابية، المرجع السابق، ص٢٨٩.

(٢) نفسه، ص٢٨٨، ٢٨٩

ثبت بالمصادر والمراجع

- الآب آنستاس الكرملى:

النقود العربية والإسلامية وعلم النميات، مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الثانيـــة، القاهرة ١٩٨٧.

- تيسير أحمد حسين وهابية:

القدس فى القرن التاسع عشر (١٧٩٩- ١٨٩٨م) رســـالة ماجـــستير غيـــر منشورة من قسم التاريخ – كلية الآداب بسوهاج، جامعة أسيوط، ١٩٨٢.

- شمس الدين محمد بن محمد بن شرف الدين الخليلى:

تاريخ القدس والخليل، حققه وكتب مقدمته وحواشيه ووضع فهارســـه محمـــد عدنان البخيت، نوفان رجالا السوارنة، مؤسسة الفرقان للتـــراث الإســـلامى، لندن عام ١٤٢٥هـــ/ ٢٠٠٤م.

- على السيد على:

القدس فى العصر المملوكى، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القـــاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٦.

- فالترهنتس:

المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها فى النظام المتـــرى، ترجمـــه عـــن الألمانية كامل العسيلى، منشورات الجامعة الأردنية، الطبعة الأولى، ١٩٧٠.

- كارين أرمسترونج:

القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث، ترجمة فاطمة نصر، محمد عنانى، ســـطور، القاهرة، ١٩٩٨.

- ليلى الصباغ:

معالم الحياة الفكرية فى الولايات العربية فى العصر العثمانى، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، إشراف وتقديم أكمل الدين إحسان اوغلى، ترجمـــة صـــالح

سعدواى، استانبول، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون الإسلامية، استانبول، ١٩٩٩.

- محمد عدنان البخيت، نوفان رجالا السوارنة:

لواء القدس الشريف من دفتر مفصل لواء صفد والغزة (غزة) والقدس الشريف من دفتر تحرير [T. D. 427] (٩٣٢- ١٥٢٥- ١٥٢٦م- ٩٣٤هـ/ ١٥٢٧- ١٥٢٨م) دراسة تحليلية للنص العثمانى وترجمته إلى العربية من الشروحات الإيضاحية، عمان ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامى لندن، جـ١.

- محمد عدنان البخيت، نوفان رجالا السوارنة:

لواء القدس الشريف من دفتر مفصل لواء صفد والغزة (غزة) والقدس الشريف من دفتر تحرير [T. D 131] _٩٣٢- ١٥٢٥م/ ٩٣٨ - ١٥٣١ - ١٥٣٢م، دراسة تحليلية للنص العثمانى وترجمته إلى العربية مع الشروحات الإيضاحية، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامى، لندن، عمان ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.، الجزء الثانى.

- محمد كرد على:

خطط الشام، مكتبة النورى، دمشق ١٩٨٣، الجزء السادس.